

والإسلام دين الغالية بينهم ، لم يفرضه سيف ، ولا أكرهت الناس عليه محاكم التفتيش ، وإنما استهوتهم فيه أشياء جميلة ، فقد كرم الإنسان ، وأعلى قدره ، واحترم إرادته ، فلا إكراه في الدين ، والناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ويضغط الباحثون الأوروبيون ، في جانب كبير منهم ، على الدوافع الاقتصادية ، ودورها في دفع الناس إلى الإسلام ، ورغبة الإسبان في تحسين أحوالهم الاجتماعية ، وأن يأخذوا بحظهم من المناصب الإدارية ، وهى قولة فيها بعض الحق ، وفيها كثير من الباطل . أما الحق فالمناصب العليا في الجانب الأعظم منها كانت وفقاً على المسلمين ، ولكن .. كم يبلغ عدد هذه الوظائف في عاصمة كقرطبة ، تجاوز تعدادها في نهاية القرن العاشر الميلادى المليون نسمة ؟. وأما الباطل فربط ارتفاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالإسلام ، فلا صلة بين الأمرين ، وبوسع أى فرد أن يملك الأموال الطائلة ، والثروات الضخمة ، والضياع الواسعة ، تاجراً أو مزارعاً أو صاحب صناعة ، دون أن يتوقف هذا على دينه فى شيء ، ولدينا شواهد عديدة فى كتب التاريخ على نصارى أغنياء ، ويهوداً يملكون دنيا عريضة من المال والعقار ، وسوف يضيق بها المسيحيون فيما بعد ، بدءاً من القرن الرابع عشر الميلادى ، ويفتعلون الكثير من الأزمات ليستولوا عليها ، تفرغاً لهم أحياناً ، وتجريدتهم منها مباشرة أحياناً أخرى ، وطردتهم من الأندلس نهائياً فى نهاية المطاف .

على أية حال لا نكاد نبلغ القرن العاشر الميلادى ، حتى تنصهر كل العناصر الإسلامية التى سكنت شبه جزيرة إيبيريا ويتكون الوجدان الأندلسى المتميز شيئاً فشيئاً ، فتتخف حدة القبلية ، وتأخذ العصبية العرقية فى التلاشى ، وتبرز أشياء كثيرة تصبح مدعاة الفخر ، إلى جانب عراقة الأسرة ، كالثقافة الواسعة ، والكفاءة فى النهوض بالمناصب ، والشجاعة فى الحرب ، والنجاح فى معترك الحياة . نعم ظل المسلمون فى جانب ، وأهل الذمة من النصارى واليهود فى جانب آخر ، ولكن يجب ألا ننسى فى أية لحظة أن جل المسلمين كانوا من سكان شبه الجزيرة الأصليين ، قوطاً أو لاتيناً ، أو من بقية العناصر الأخرى التى